رياضة الجبل

كل رياضة لا ينمو بها الجسم والعقل والخُلق جميعاً تفقد ركناً من أركان القوة التى يجب أن تتوافر فى الرجل السليم . فإن اشتد ساعدُه وهانت بصيرته فما هو بسليم ، وإن نما عضده وعقله وسقطت همته فما هو بسليم ، وإن كبر عقله وتضاءل عزمه وجسمه فما هو بسليم . . . ولقد حسِبَ الذين أصابهم الكِبَرُ قبل أن يبلغوا أجله أن الرياضة لعب ولهو ، وأن الحياة وقار ، وأن الوقار جمود ، وحملوا بنيهم وبناتهم على أن يتخلقوا فى ربيع الشباب بخلق الشيوخ . . . ثم سئموا بعدها تكاليف الحياة واستذلهم العجز والخمول فلا ينهضون لخير ، وهرمت أمم مختارةً ، واستمتع غيرها بالشباب والقوة والنهوض والعزم . . .

ولقد سألت نفسى فى مطالع الجبل سؤالا أبدئ فيه ثم أعيد ، عسى أن أجد وجه الصواب فيه لا ظالماً ولا مظلوماً . . . كيف يبصر وجه الحياة من شبَّ مكتوفاً فى منازل العسر والجهل ، وإن أبصر وجه الحق ضاقت حيلته ، ولا يسمع مرشداً يحبُّه ولا هادياً يهديه . والإنسان معدن قد يغفل فيترا كم عليه التراب وقد يقدقد السيف فيكون حيًّا صارماً . . وكيف يبصر جانب الحق شباب لا يسأل نفسه عن شىء ولا يسأله سائل عن شىء ، فركب من الحياة مركباً هيِّناً ، ونعم بنعمة الظل فى مطلع الربيع ، فذبلت زهرته التى لا تستقبل حرَّ الشمس ؟ . . . إن الإنسان فقير أبد الدهر إلى النور . . . فإن لم يأته نور من علم أو معرفة أو هداية أو تجربة ، نظر بعينيه فلا يبصر ، وأصغى بأذنيه فلا يسمع ... وكان حقًّا على القوى أن يضىء ظلام الضعيف ، وعلى العارف أن يهدى سبيل الضال . « فمثل رجل رأى ضالا فهداه الطريق كمثل الذى يضىء للناس من مصباحه فيعيش الناس فى ضياء ، ولا يمنع ذلك مصباحه من أن يضىء » .

ومن أولى بنشر ذلك النور ممن تولى قيادة الإنسان ، ومَنْ أمسك بيديه مصير الإنسان ، أى الذين نهضوا لحكومته . فإن نسى هؤلاء أنهم أئمة السعادة والنور ، وذكر هؤلاء أنهم مُسَاطون أشداء ، تردَّى من يحكمون فى ظلمات الحياة ، وكان جزاؤهم أن يكرهوا مثلما يُكره التسلط الغاشم الظالم .

ومن أولى بنشر ذلك النور من عالم يحب الإنسان وسعادة الإنسان . فإن أمسك عليه علمه كان مصيره كالشجرة التى يسقط ثمرها فلا يحيا به الناس . . . وخير ما يُنْعِم به الحاكمون فى أمة على شبابها وما ينعمون به على نفوسهم من جميل — سفينة فى البحر تحمل تجارة الأمة وتحمل شباب الأمة إلى كشف حجاب الطبيعة ، فيعلمون ما يعجز عن كشفه كل كتاب ، ويقرءون ما يقصر عن بيانه كل معلم . فكل معرفة لاتأتى من صحف الطبيعة صدى ليس من ورائه حياة . وكثير منها غرور وظن . ولا يزيدهم ذلك إلا تعطشاً للدار التى شبوا فيها وحنيناً للأرض التى ولدوا فيها . فإن جاءوا ديارهم بعد هذا جاءوها بعلم وقوة ، ومنعوها وأعزوها بعلم وقوة ، ولا يسأمون تكاليف الحياة والشباب . وكيف يسأم تكاليف الشباب من انغمس مرة فى أثير السماء ، ومن كشفت قدماه الصخور التى تتفجر منها البحيرات والأنهار ، ومن ملأ عينيه بالبسمات التى لا تحصى والتى تتوج رءوس الموج فى البحار ، ومن نام فى أحضان الأرض التى ولدت كل شىء وسار فى موكب الشمس التى تبصر كل شىء . . . ونمى عقله وعزمه وساعده .

مما أنعم الله به على الإنسان نعمتان . . . نعمة النسيان والفكر ، فكيف يخرج الفكر من النسيان . . . أوتار فى النفس تهتز من صفو ومن صدًى ومن نعيم ومن شجى ، وترسل الزهرة الناعمة وجهاً محبوباً وسعداً ، ويوقظ الطير الوديع بدعائه وندائه أوتار السماحة والرضا ، وتطاوع هذه الأوتار ماتسمع من خرير الحياة الدافقة التى تهبط عند مرمى العين من شاهق ، والتى تتلوى تحت قدميك فى ضمير المراعى ، والتى تترامى ضافية حية ، فإن اعترضها صخر دفعته فإن ثبت لها الصخر جرت من حوله عن يمين ويسار . . . وحينئذ يستوى الفكر والنسيان كما تستوى نعمة الفكر والنسيان إن ثملت الأوتار بالنغم العذب . وما تزال تتراوح هذه الأوتار من صدى إلى صدى حتى يغلبك الطرب على جمود الوقار ، وتغنى كما يتغنى من بين يديك كل شىء .

وفى ضحى الشمس نسيم تهتز فى آثاره أعطاف الأشجار ، وأديم السماء صاف أزرق لا تختلط به الغيوم ، وفى وضح النهار بياض مصفًّى لا تشوبه شائبة ، وسكون وسلام وأمن . . . تقودك عصاك الطيِّعة من ظل الشجر إلى حر الشمس فوق الصخور التى يتبدل حولها ماء السحاب جليداً ، والتى لا تبصر مكنونها العين ، والتى خلقت مهبطاً للنور . وترى عند أقصى لفتاتك لوناً لا يكاد يستقر تحت الأبصار حتى يتبدل تحت طيف الشمس شيئاً آخر ، وترسل الشمس ضوءها الوهاج فى قمم الصخور الباسقة فى كبد السماء ، وفى أودية الثلج الأبيض الممتد بين هذه الصخور والقمم ، وتشيع الشمس صفاء لا تدركه الأبصار وسلاماً لا يبلغه السمع ، ويخرج من ثدى هذه الطبيعة كل شىء حى ، وتنسيك الطبيعة كل شىء فلا تدرك خطو الزمان الذى يترك خطوه فى بعض الأرض الفناء . . . والهرم . . . ليس فى قلب هذه الطبيعة هرم ولا فناء ؛ إنما ترسل هذه الطبيعة الفتوة وتثير هذه الطبيعة السعادة الكاملة التى توحى إلى النفس الخلود . فوق هذه الصخرة التى تشرف على قطع من الجليد ، والتى يبلل جوانبها ماسال من قطع الجليد العليا إبر مدببة من رءوس الجبل عاتية مظلمة جرداء تعترض ضباب السحاب ، وتعترض ما وراءها من سلاسل جبال تعلو وتنحدر كأنها رءوس الموج فى بحر عاصف ، وتتلون هذه السلاسل بألوان قاتمة إذا حجب عنها ضياء الشمس . وإذا جلتها الشمس كشفت عما فى باطنها من مرعى أخضر تنفذ فى بساطه الأخضر القاتم كتل عارية من صخور حمر ، حتى تلقى عند مدى العين سلسلة كلون السحاب بيضاء قد كسا رءوسها الجليد الذى تمزقه صخور سود . ويعترض مدى العين جانب شاهق يُسلم العين إلى صفحة السماء التى جرى فوق لونها المخضر الأزرق خطوط بيض وقطع من سحاب أبيض لا تستقر فى قرار وإنما تمرُّ مترفقة كأنها على سفر ، ثم تهبط العين من شاهق السحاب إلى باطن الوادى فى هاوية تخضرُّ جنباتها ثم تكون صخراً مجرداً . واتخذت مياه القمم سبيلها من كل منزل واطىء إلى باطن ذلك الوادى . . . ولا تسمع فى رأس هذا الجبل سوى صوت مساقط الماء وهى تدوى فى جوف الصمت دويًّا يبدد عنفه فضاء الوادى . . .

وليس أعجب فى هذا الجبل من فعل الماء . . . فهو كأنما يريد أن يغيث الناس من كل سبيل . . . فهو منبعث منطلق من شقوق الصخر ومن جيوب

الجبل . وإذا تجمع تدفق فأكل باطن الصخر ، وهوى من صخر إلى صخر وبطون الصخر الأحمر والأبيض والأسود ملساء ناعمة لا تغير من بياض السيل شيئاً ، فهو صاف لا يخفي ما فى باطنه من شيء . وإذا لقى فى مجراه جندلا من جلاميد الصخر نفر فتناثر فوق رأسه بياض شاهق من فوقه رذاذ . فإن سد طريقه الجبل أكل ما استطاع من الأرض التى يستند عليها الجبل فيسقط مجرى السيل من رأس صخر سقط مما أكل السيل ، إلى رأس صخر هوى إلى ما انحدر من السيل . . . فهى مساقط بعضها فوق بعض فى أعماق تتزايد كلما ضاقت جوانب الجبل . وكلما تجمع مجرى السيل فى هذه المضايق العميقة انبعثت منه قوة لا يقف فى سبيلها شيء . . . ويتجمع فى مجراه الضيق كتل من صخر موحش استقبلت سبيل الماء ولم تتجرد من طبيعتها الأولى ، فهى تحمل فوق رأسها شجراً حياً هبط معها من جانب الجبل ، وكلأ أخضر ما يزال مزهراً .

والله يغفر الذنوب جميعاً ، فقد مكثت عشرين يوما أنظر فى ثنايا الجبل إلى رءوس الجليد ومساقط الماء ، وأصغى إلى نفسى وإلى ما تجده من نعيم فى كبد الصمت ، وإلى ما يملؤها من فيح النسيم . ومضيت جامداً لا ألوى على هذه الزهور التى تناثرت فى المرعى الأخضر وعاشت فى عروق الصخر الجامد . . . حتى قالت لى فتاة ذات صباح : « اجمع لى من زهر الجبل . . . » فأى نعيم فى هذه الحياة ينزل بنفوس الأحياء أنعم من هذه الساعة حين لا يبقى للنفس من شاغل سوى جمع الورد وتتبع الريحان والزهر . . . وتلفتٍ إلى هذا اللون الندى الأزرق الذى كسا رأس الزهر وتمايل فى ظلال الجبل مع النسيم . وتتلون الزهرات بحلى دَقَّ عن كل وصف . . .

ثم يحجب الصخر سحراً وعلماً لا يبلغه سوى القوى الفتى . وإن من الصخور لصخراً يأخذ بالألباب ويدعو بدعاء جُزر الموسيقا التى دعت فى الأساطير كل عابر : أيها العابر الغريب ، من أتانا طرب بما لم يطرب به أحد ورددناه إلى أهله بعلم . ومن جاءها هلك . ولا ينجو من التهلكة إلا من سد سمعه عن دعائها . وكذلك تدعو بعض الصخور : أيها العابر الغريب إنك لم تبلغ ضمير فِتْنتِى وسحرى ، فمن أتانى طرب بصمت وسلام لم يبلغه سمع ، ورددته إلى قومه بعلم ، ورأى ليلا لم يشهده أحد ، وشهد مطلع الشمس بسحر لا يعلمه أحد . ودون هذه الصخور كتل وأودية من جليد .

واتخذ فتية الجبل مغنما من قيادة الرياضيين إلى تسلق هذه الصخور. وامتازت الرياضة فى الجبل بالصبر والتمهل والتعقل . . . والطريق البعيد خير دائما من الطريق القريب . . . وأثقلت أحذية الرياضيين بقطع من الحديد تثبت فى الصخر وتقى من الزلل وتعصم من خفة الأحلام . وحمل الرياضيون طعامهم وبعض ما يحتاجون إليه فى حقائب يشدونها إلى ظهورهم ، وفى أيديهم عصىً تثبت فى الأرض بطوق من حديد مدبب ، ولها مقابض كهيأة الفأس أعدت لترفع ما عسى أن يعترض الطريق من ثلج ، وليحفروا بها موضعاً لأقدامهم فى الصخر الأملس والجبل القائم . . . ويقضون النهار فى مثانى مصعدة فوق الصخر الجامد والعشب اللين ، ويجتازون منازل السيل ثم يقضون الليل فى أكواخ عند أقدام أودية الجليد ؛ ليبرحوها قبيل الفجر وراء الدليل إلى رأس الجبل ، وليشهدوا مطلع النهار والشمس .

ومن لم يأخذ لهذه الرياضة أهبتها ، ولم يتزود لها بالأناة والحكمة قد تزل به قدم إلى فج سحيق . . . وقد اخترت العزلة فى مطالع الجبل على تتبع الدليل ، ومشيت وحدى وسط النهار فى مثانى معلمة بخطى الذاهبين ، ولم أرد أن يكون لى صاحب يشغلنى بحديثه عما أرى وما أسمع ، فقد حرصت على أن أنفض عن قلبى فى صفو السكون ما عسى أن يكون قد اكتسب من ملالة بالناس فى حياة المدن . وكلما استقبلت بقلبى ما لم أكن أعلم من جمال وصحو أوت إليه الحياة والبشر والربيع والشباب ، وقرأت فى صفحة الطبيعة حكمة خفيت من قبل على قلبى ، وهى أن السعادة أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وأن الله قد ألزمها عنق الحياة حين قدّر الحياة للناس ، فنسيها الإنسان ونظر إلى حيث لا يشهد إلا الشقاء يوم استمسك بأهداب الطمع الذى أذل أعناق الرجال ، وبالمال الذى شتت الحبيبين . فمن استطاع أن يستقبل بملء جفنيه متهللا مستبشراً ثياب الفجر الوردية ويستقبل وجه الشمس بقلب سليم ، ويشرق قلبه كما يشرق الطير المغرد فى الصبح والزهر المتفتح فى مطلع النهار ، ومن استطاع أن يمشى فى الأرض تحت حرِّ الشمس ، فيرى عند قدمه ظله حيًّا مشرقاً إذا فلح الأرض أو غرس الزهر أو مشى فى مناكب الأرض إلى معرفة وخير ، ومن استطاع أن يعمل نهاره فيثمر ما عمل وينمو عقله وعزمه وساعده نمو الخير ، ومن استطاع أن يطلق نفسه من كل عقال ، ويحرر قلبه من كل ذل مختار ، ومن استطاع أن يسير فى موكب الحياة

والشمس ، وأن يغمس قلبه فى أصيل الشمس ، ولا يحدثه الليل ببغيضة أو نقمة ويحدثه بالخير أبداً ، ومن استطاع أن يجمع ما غرست يمينه من زهور فيهديها للتى تحبه والتى لا تريد أن تحبه ، ومن استطاع ألا يفسد صفاء الليل بطمع وجمال النهار بجشع — من استطاع ذلك فقد كسب نعيم الحياة جميعاً ، وهو نعيم لم يختص الله به غنيًّا دون فقير ، ولا كبيراً دون صغير ، بل هو مال مشاع من سبقت إليه يده فهو له .

على مافظ